

الصراع الفلسطيني الإسرائيلي..

إلى أين؟ منظور ثقافي

كمال الخالدي

بيروت: دار ابن رشد،

١٩٩٨. ١٨٦ صفحة.

مع كل هزيمة تحيق بالعرب، يعمد بعضهم إلى خفض سقف مطالبه، وإلى تبديل الهدف الاستراتيجي لنضاله بما هو أقل، أو إلى تفتيته في اطراد. في حين أنه يفترض التشبث بهذا الهدف الاستراتيجي، والاهتمام بدراسة أسباب الهزيمة، من أجل العمل على معالجتها وتجاوزها.

يدعو هذا الكتاب إلى إقامة دولة ثنائية القومية في فلسطين، كحل استراتيجي، وكمخرج من الاستعصاء الذي تواجهه القضية الفلسطينية، وصراعنا مع إسرائيل. إن المؤلف قومي التوجه، وقيادي في حزب البعث، منذ كان طالباً جامعياً في مصر، في أواخر الخمسينات وأوائل الستينات، إلى أن غادر مصر، سنة ١٩٦٣، ليقوم بدمشق منذئذ حتى اليوم.

وعلى الرغم من ذلك، فإن الخالدي يرى أن صراعنا مع الصهيونية وكيانها هو "صراع فلسطيني - إسرائيلي". وهذا ما يتوضح من عنوان الكتاب، وفي غير موضع منه. فضلاً عن أن المؤلف يعتبر أن اليهود يشكلون قومية، وخصوصاً منهم أولئك الذين استوطنوا فلسطين. ولا يغيب عن باله أن الجماعة القومية هي التي تتمتع بعناصر أساسية مثل: "الأرض؛ اللغة؛ المصالح المشتركة؛ القيم الثقافية؛ المصير الواحد والانتماء المشترك إلى فلسطين" (ص ١٤٨). هنا يسقط المؤلف، عن عمد، عنصر "جماعة من الناس تكونت تاريخياً". إذ كيف لنا أن نسلّم بإمكان تشكّل وعي قومي لليهود في فلسطين، بهذه السرعة، متجاوزين الشرط الأساسي بضرورة التكون التاريخي المديد، حتى تتحول ملّة دينية إلى جماعة قومية؟ بل كأنه أصبح مستساغاً أن تستبيح وأن تغتصب أية جماعة دينية أراضي شعب آخر وحقوقه، لتتحول هذه الجماعة إلى أمة، الأمر الذي يسوّغ لها المطالبة، لاحقاً، بحقها في تقرير مصيرها على

الأرض التي اغتصببتها! وإن كان المؤلف يشترط أن "تتخلى الجماعة اليهودية في فلسطين عن الأيديولوجيا الصهيونية الاستيطانية" (ص ١٦١)، كأن المؤلف في موقع قوة، يؤهله لفرض شروطه.

في تقديمه للكتاب يستخدم المفكر السوري المعروف، صادق جلال العظم، مقولة كارل ماركس الشهيرة التي تؤكد أن التاريخ يعيد نفسه، مرة على شكل ملهاة، ومرة أخرى على شكل مأساة. ولا أدري ما إذا كان العظم يقصد فكرة الدولة ثنائية القومية التي كانت القيادة الصهيونية تتلهم بها، قبل قيام إسرائيل؛ وغدت هذه الفكرة، اليوم، تعبيراً عن وضعنا المأساوي.

يبدأ الخالدي تعريف الدولة ثنائية القومية بأنها "نظام حكومي، يشترك فيه الشعبان المعنيان بالنظرة الواحدة إلى المكونات الأساسية للدولة. لكل شعب هويته القومية المنفصلة... يشتركان في اقتسام السلطة وفي الولاء للوطن الواحد"، بحسب تعبير المؤلف (المقدمة، ص ١١).

وجاء الكتاب في سبعة فصول، شملت ١٨٦ صفحة من القطع الكبير.

في الفصل الأول تمت تغطية "المنظور العربي للفكرة"، حيث ساد التعايش بين العرب واليهود في فلسطين، قبل صدور "تصريح بلفور" (١٩١٧/١١/٢) الذي أثار مخاوف الشعب العربي الفلسطيني. لكن تلك المخاوف لم تحل دون قيام اتصالات عربية باليهود، طوال سنوات الانتداب البريطاني (١٩٢٢ - ١٩٤٨). وفي هذه الاتصالات، حاولت "الوكالة اليهودية" رصد آراء العرب واتجاهاتهم، ومعرفة ردات فعلهم إزاء بعض الأفكار والانطباعات (ص ٢٥). وقد شكلت تلك الاتصالات دليلاً جديداً على رغبة العرب في التعايش مع اليهود.

وقد حولت النكبة (١٩٤٨) صورة اليهودي إلى كابوس، يستحيل التعامل معه. على أن احتلال القوات الإسرائيلية بقية فلسطين، في حرب ١٩٦٧، طرح على الفلسطينيين جملة من الأسئلة في مقدمها: "كيف يمكن التوفيق بين مواجهة الاحتلال ومواجهة المنفى؟"

في الفصل نفسه، يعيد الخالدي شعار "الدولة لعلمانية الديمقراطية في فلسطين" إلى الجبهتين "الديمقراطية" و"الشعبية" منذ سنة ١٩٧٤، وإلى خطاب ياسر عرفات في الجمعية العامة للأمم المتحدة، في خريف السنة نفسها. إنه الشعار الذي رفضه معظم الإسرائيليين، في حينه. وفي الواقع يعود ذلك الشعار إلى المؤتمر العربي الفلسطيني الخامس (١٩٢٢) الذي حدد أهداف النضال الوطني الفلسطيني في: إلغاء وعد بلفور؛

وقف الهجرة اليهودية إلى فلسطين؛ منع انتقال الأراضي إلى المستوطنين اليهود؛ إقامة حكم وطني في فلسطين. وفي التفصيلات، تمت الإشارة إلى تمثيل العرب واليهود، كل بحسب نسبه في البلد. أما الشيوعيون الفلسطينيون، فسموا الأشياء بأسمائها، وطالبوا - منذ العشرينات - بانسحاب القوات البريطانية، وباستقلال فلسطين، وبإقامة دولة ديمقراطية فيها. وبعد نكبة ١٩٤٨، تم طي هذا الشعار، لكنه عاد فأطل برأسه، من جديد، مطلع سنة ١٩٦٩ على يد مسؤول "فتح" في باريس، آنذاك، محمد أبو ميزر (أبو حاتم). وبعده بأيام قليلة، قرأ نبيل شعث، في القاهرة، خطاباً أعد له أمام "المؤتمر العالمي للتضامن مع الشعوب العربية من أجل إزالة آثار العدوان الإسرائيلي"، قبل رفع الشعار من قِبَل الجبهة "الديمقراطية" والجبهة "الشعبية" وياسر عرفات بخمسة أعوام وبضعة أشهر.

أما المنظور اليهودي للدولة ثنائية القومية، فغطاه الفصل الثاني، الذي أشار إلى يهود ليبراليين، دأبوا على رفع ذلك الشعار، بعد أن صدموا بوجود شعب في فلسطين، على عكس ما زعم قادة الحركة الصهيونية.

وعن "السياسات الصهيونية نحو العرب في فلسطين ١٩١٧ - ١٩٣٩" كان الفصل

الثالث، وهي السياسات التي هدفت إلى تهدئة ثورة الفلسطينيين.

ورصد المؤلف في الفصل الرابع تطور الفكرة، بين سنتي ١٩٢٥ و ١٩٤٨، ومختلف الجماعات اليهودية التي تبنتها. وأعاد الخالدي اضمحلال جماعة "بريت شالوم" إلى قلة الموارد المالية، وإلى الانسحاب المطرد للأعضاء منها، في حين أن ثمة أسباباً أهم، مثل: الأزمة الاقتصادية التي خنقت فلسطين (١٩٢٨ - ١٩٣٢)؛ وصول الحزب النازي إلى الحكم في ألمانيا (١٩٣٣)، وما اقترن بهذا الوصول من ارتفاع في معدلات الهجرة اليهودية إلى فلسطين، بالتساوق مع اشتداد عود الحركة الوطنية الفلسطينية، غداة الصدمة التي أحدثتها هبة البراق، صيف سنة ١٩٢٩ وطوال الثلاثينات، فضلاً عن التشدد الموازي داخل الحركة الصهيونية نفسها.

لقد تأثر نشاط جماعات القومية الثنائية من اليهود، إيجابياً، بصدور "الكتاب الأبيض" عن الحكومة البريطانية، في أيار/مايو ١٩٣٩، على حساب الأطماع الصهيونية في فلسطين، لكن تأثير تلك الجماعات انحسر بعد انتعاش الحركة الصهيونية، مع انتهاء الحرب العالمية الثانية. وغاب ذلك التأثير تماماً، بعد قيام دولة إسرائيل، سنة ١٩٤٨. وخلال فترة بروز تلك الجماعات، أسس مدير الجامعة العبرية، يهودا ماغنس، جماعة "إيحد"، أشهر الجماعات التي تبنت فكرة الدولة ثنائية القومية.

ويشير الخالدي إلى أن الجماعات اليهودية التي دعت إلى دولة ثنائية القومية افتقرت إلى التجانس الفكري، واقتصرت على قلة مثقفة ومحدودة التأثير في الحركة الصهيونية. وقد انتمت تلك القلة إلى الصهيونية الثقافية، الأمر الذي وسم مواقفها بالطابع الخلقي، إذ دعت إلى حل وسط، يحقق للصهيونية هدفها في قيام دولة في فلسطين، حيث للعرب حقوق طبيعية فيها، مع حقوق تاريخية لليهود.

بعد سنة ١٩٤٨، توارت فكرة الدولة ثنائية القومية، الأمر الذي يعالجه الفصل الخامس. وحين أطلت الفكرة برأسها بعد حرب ١٩٦٧، سارع وزير الدفاع الإسرائيلي، حينذاك، موشيه دايان إلى رفضها، لأن عناصر المعادلة قد تغيرت عما كانت عليه قبل قيام إسرائيل. إذ توزع الفلسطينيون على الأقطار العربية، وغدت إسرائيل قروية يحسب لها ألف حساب، ولم تعد بحاجة إلى حلول وسط، أو "أمر واقع"، وإنما أصبحت الحرب حتمية مع العرب (ص ١١١ - ١١٢).

ثم تناول الفصل السادس "العلاقات الفلسطينية الإسرائيلية بعد اتفاقية (أوسلو)"، التي أثرت سلباً في الجانب الفلسطيني، وإيجاباً في الجانب الإسرائيلي، في المجال الاقتصادي، الأمر الذي وسع الهوة بين الطرفين وقام كيان فلسطيني شكلي ومنفصل، لكنه يعتمد في معيشتة على إسرائيل. وبقيت المشكلات الأساسية معلقة، في حين أخذت المشكلات الثانوية في التحول إلى قضايا أساسية.

لقد أراد الطرف الإسرائيلي من الحكم الذاتي أن يشكّل سداً منيعاً، يحمي أمن إسرائيل، بينما تضعف مسؤولية منظمة التحرير على مختلف التجمعات الفلسطينية التي تتعمق عزلتها بعضها عن بعض، وتقوم معازل (باننوتستانات) لفلسطينية الضفة الغربية وقطاع غزة، تحت الرقابة الإسرائيلية المشددة، ويحصر دور الحكم الذاتي في امتصاص سخط جماهير الضفة والقطاع، من دون أن يحظى ذلك الحكم بأية سلطة على الأرض، عدا ما تمنحه إياه إسرائيل، الأمر الذي يحول التحرير الوطني إلى صورة مقنّعة للتقسيم أو للانفصال. إلا إن هذا لم يمنع القائمين على سلطة الحكم الذاتي من الحلم بإمكان تحول مناطقهم إلى دولة. ويعيب الخالدي على اتفاقية أوسلو قيامها على أساس الهيمنة الإسرائيلية، وعلى اختلال التوازن، وعلى افتقار الشعب الفلسطيني إلى الأمن.

لكن الخالدي يتوقع أن يخوض الفلسطينيون "نضالاً متضامناً مع الطبقات الفقيرة في المجتمع الإسرائيلي... ضمن علاقات يومية، تقرب بينهم للنضال ضد نظام الحكم" (ص ١٤١).

ويبدو أن الخالدي نسي أن "فقراء المجتمع الإسرائيلي" هم الأكثر تشدداً، والأشد تمسكاً بالمناطق العربية المحتلة؛ ذلك بأن أهالي هذه المناطق يحلون محل "فقراء المجتمع الإسرائيلي" في العمل الشاق داخل السوق الإسرائيلية، الأمر الذي يتيح لهؤلاء الفقراء الارتقاء درجة في السلم الطبقي الإسرائيلي. لذا ليس غريباً أن يشكل أولئك الفقراء قاعدة وجماهير أقصى اليمين في إسرائيل. فضلاً عن أننا إزاء بنية طبقية غير طبيعية لكيان يقوم بوظيفة الثكنة، لحساب الغير، في الأغلب الأعم. ويستشهد المؤلف بلوحة للمجتمع الإسرائيلي، رسمها الباحث الليبرالي الإسرائيلي المعروف، ميرون بنفنيستي، فحواها أن الإسرائيليين يرفضون، في معظمهم، دولة ثنائية القومية، لأنهم يعيشون حضارة أجنبية. في حين تعتقد نسبة من الفلسطينيين أنه من الممكن أن يعيش العرب الفلسطينيون بين اليهود الإسرائيليين على الأرض نفسها، وهو ما شجع بنفنيستي على حث تلك النسبة الفلسطينية على اقتراح نظام من الاستقلالية الثقافية، ضمن إطار هيكل مشترك سياسي - جغرافي يستظل بمساواة قومية. لذا نجد المؤلف يحث قوى عقلانية من الطرفين على إقامة "عمل مؤسسي، تكون له استراتيجية بعيدة المدى" (ص ١٤٣). ولا أدري كيف قدر المؤلف أن المرحلة الراهنة مثالية للبدء بهذا العمل.

أما بيت القصيد فتضمنه الفصل السابع، بعنوان: "منظور ثقافي لفكرة دولة ثنائية القومية في فلسطين"، حيث يسلم المؤلف بضعف شعبية تلك الفكرة لدى الطرفين، على حد سواء، بينما انتقت الصهيونية من شروط الفكرة ما يتفق ومصحتها الضيقة.

ولا يرى المؤلف إمكان الوصول إلى خيار ثنائية القومية بالتفاوض السياسي، فهذا الخيار انتقال متدرج وتطوري، يعول فيه كثيراً على موقف النظام السياسي الإسرائيلي. ويقدر الخالدي أن امتصاص الضفة والقطاع داخل إسرائيل سيساعد في تقريب بالمسافة بين الشقين، الإسرائيلي والفلسطيني.

ثم يضع الكاتب خطة عمل لنقل الدولة ثنائية القومية إلى حيز التنفيذ، بدءاً بتعديل اتجاه كل قومية ومفاهيمها، مع تفهم الجماعة العربية الفلسطينية للعوامل التي أدت إلى تفاقم المسألة اليهودية، وإلى ما يسميه المؤلف "تشكل الوعي القومي لدى الجماعة اليهودية في فلسطين بعد قيام إسرائيل"، وكأن على الجماعة العربية الفلسطينية أن تكفر عن ذنب لم تقترفه، فتدفع نيابة عن جرائم الأوروبيين بحق اليهود على مر التاريخ، إلى أن تسببوا بتفاقم المسألة اليهودية. وهذا إضافة إلى "القومية

اليهودية"، التي يرى المؤلف أنها تبلورت في فلسطين.
أخيراً،

فمن جهة، ما أبعد مقدمات الخالدي عن النتيجة التي انتهى إليها. ومن جهة أخرى، ثمة السؤال الأكبر: في الوقت الذي لم تدعن فيه الصهيونية لفكرة الدولة ثنائية القومية، قبل سنة ١٩٤٨، فما الذي يدعوها، اليوم، إلى القبول بتلك الفكرة، بعد أن اشتد رجحان كفة ميزان القوة لمصلحة الصهيونية وكيانها؟ وهذا ما يجعل دعوتنا إلى هذه الفكرة جهداً ضائعاً، ولهاثماً وراء سراب، على حساب العمل الجاد المثمر في سبيل تعديل ميزان القوى لمصلحتنا.

عبد القادر ياسين

كاتب فلسطيني

مجلة الدراسات الفلسطينية، جميع حقوق النشر وإعادة التوزيع محفوظة لمجلة الدراسات الفلسطينية، ولا يمكن نشرها أو توزيعها إلكترونياً إلا بإذن من رئيس تحرير المجلة وذلك عبر الكتابة إلى العنوان البريدي التالي: majallat@palestine-studies.org
يمكن تحميل هذه المقالة أو طبعها للاستخدام الفردي وعند الاستخدام يرجى ذكر المصدر:
<http://www.palestine-studies.org/ar/mdf>